

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وَفَاةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

عبد الحميد جودة السحار

٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . »

(قرآن کریم)

كان المسلمون يقاتلون المرتدين عن الإسلام ،
 فلما انتصروا عليهم راحوا يُقاتلون الفُرسَ والرُّومَ ،
 وقد قُتِلَ كثيرٌ من الذين يحفظون القرآن في هذه
 الحروب ، وخاف عُمرُ بنُ الخطاب أن يضيع القرآنُ
 بعد موتِ الذين يحفظونه ، فدخَلَ على أبي بكرٍ
 وقالَ له :

— إِنَّ القِتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ (اشْتَدَّ وَكَثُرَ) يَوْمَ الِإِمَامَةِ
 بِالنَّاسِ ، وَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَسْتَمِرَّ القِتْلُ الْقُرَاءَ فِي
 الْمَوَاطِنِ ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ يَجْمَعُوهُ ،
 وَإِنِّي لِأَرَى أَنْ يُجْمَعَ الْقُرْآنُ .

قال أبو بكرٍ لعُمرَ :

— كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ۱۹
فَقَالَ عُمَرُ : هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ .

فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُ أَبَا بَكْرٍ ، حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ
لِلذَلِكَ صَدْرَهُ ، وَأَرْسَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ،
وَكَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا جَاءَ زَيْدٌ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ :

— إِنَّكَ شَابٌّ عَاقِلٌ ، وَلَا تَنْهَمُكَ ، وَقَدْ كُنْتَ
تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَتَتَّبِعِ الْقُرْآنَ وَاجْمَعَهُ .

وَأَحْسَنُ زَيْدٌ بْنُ ثَابِتٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ يَطْلُبُ مِنْهُ أَمْرًا
خَطِيرًا ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ قَدْ كَلَّفَهُ نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ
الْجِبَالِ لَكَانَ أَيْسَرَ ثَمَّا أَمْرُهُ بِهِ ، فَرَاحَ زَيْدٌ بِجَمْعِ
الْقُرْآنِ مِنَ الرِّقَاعِ وَالْأَكْثَافِ (أَلْوَاحٍ مِنْ عَظْمِ
الْكَيْفِ ، كَانَ الْعَرَبُ يُنْظَفُونَهَا وَيَكْتُبُونَ عَلَيْهَا
كِتَابَاتِهِمْ) وَصُدُورِ الرِّجَالِ .

استمرَّ زيدُ بنُ ثابتٍ يَعملُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، حَتَّى
تَمَكَّنَ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ فِي صُحُفٍ ، وَدَفَعَ بِالصُّحُفِ
إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَبَقِيََتْ عِنْدَهُ .

كان الجوُّ بارداً ، فدخل الناسُ دورَهم يَحْتَمُونَ فيها
 من البرد ، ودخل أبو بكرِ دارَه يَغْتَسِلُ ، فخرج بعد
 أَنْ اغْتَسَلَ يَنْفِضُ ، فدخل فراشه ، فأحسَّ حرارته
 ترتفع ، وأنَّ رأسَه يكادُ ينفجر ، ومرضَ أبو بكرٍ
 بالحمى ، فلمْ يُعَدِّ بقادرٍ على أَنْ يخرجَ لِيُصَلِّيَ بالنَّاسِ .
 ودعا أبو بكرِ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ ، وكان من
 خَيْرَةِ صحابةِ الرُّسُولِ ، وقالَ له :

— أخبرني عن عُمَرَ ؟

فقال عبدُ الرَّحْمَنِ :

— يا خليفةَ رسولِ اللَّهِ ، هو واللَّهِ أَفْضَلُ من رأيكَ
 فيه من رجلٍ ، ولكنَّ فيه غِلْظَةٌ .

فقال أبو بكرٍ :

- ذلكم لأنه يرانى رقيقا ، ولو أنه أفضى الأمر
إليه ، لترك كثيرا مما هو عليه . وقد رمقته فرأيتنى
إذا غضبت على الرجل فى الشئ ، أرانى الرضا
عنه ، وإذا كنت له ، أرانى الشدة عليه . لا تذكر
يا أبا محمد مما قلت لك شيئا .

قال عبد الرحمن بن عوف : نعم .
وفهم عبد الرحمن أن أبا بكر يريد أن يستخلف
عمر على المسلمين بعده .

ودعا أبو بكر عثمان بن عفان وقال له :

- يا أبا عبد الله ، أخبرنى عن عمر .

قال عثمان : أنت أخبر به (أى أعلم به) .

- على ذاك .

قال عثمان :

- اللهم علمى به أن سريره خير من علانيته ،

وأن ليس فىنا مثله .

قال أبو بكر :

- رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ . اكْتُبْ : بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هذا ما عَهَدَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي
قُحَافَةَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَمَا بَعْدُ ..

ثُمَّ أَغْمِيَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَكُتِبَ عُثْمَانُ « ...
فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، وَلَمْ
أَكُنْ خَيْرًا مِنْهُ ...

وَأَفَاقَ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ لِعُثْمَانَ : اقْرَأْ عَلَيَّ .

فَقَرَأَ عُثْمَانُ مَا كُتِبَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

- اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَرَأَيْكَ خِفْتَ أَنْ يَخْتَلِفَ النَّاسُ إِنْ
أَقْبَلْتَ نَفْسِي فِي غَشِيَّتِي .

- نَعَمْ .

- جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ .

وَاسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّاسِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ،
فَسَمِعَ النَّاسُ لَهُ وَأَطَاعُوا . وَدَخَلَ طَلْحَةُ بْنُ عُقَيْدٍ
اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ .

وقال له :

- استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما
يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ،
وأنت لاق ربك ، فسألك عن رعيتك ؟
فقال أبو بكر ، وكان مضطجعا : أجلسوني .

فأجلسوه ، فألقت إلى طلحة وقال :
- أبا الله تخوفني ؟ إذا لقيت الله ربى فسألتنى
قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

ودخل عبد الرحمن بن عوف على الصديق ،
وفطن الصديق إلى تغير وجه عبد الرحمن بعد أن
استخلف أبو بكر على الناس عمر بن الخطاب ،
فقال له أبو بكر :

- إني ولّيت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلّكم
ورم أنفه من ذلك ، يريد أن يكون له الأمر دونه ،
ورأيتُم الدنيا قد أقبلت ، ولما تقبل : وهى مقبلة
حتى تتخذوا ستورا الحرير ، ونصائد الدياج ،

وَتَأَلَّمُوا الاَضْطِجَاعَ عَلَى الصُّوفِ ، كَمَا يَأَلَّمُ
أَحَدُكُمْ أَنْ يَنَامَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ (السعدان :
نبت ذو شوك حاد) .

جلست عائشة ابنة أبي بكر ، وزوجة النبي ،
 تمرض أباه ، فنظر أبو بكر إليها طويلاً وقال :
 - يا بنية ، إن أحب الناس غني إلى بعدى أنت ،
 وإن أعز الناس فقراً على بعدى أنت ، وإنى كنت
 نخلتك (أعطيتك) أرضي التي تعلمين ، وأنا أحب
 أن ترديها علي ، فيكون ذلك قسمة بين ولدي على
 كتاب الله ، فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك
 وأختاك .

فظهر الدهش في وجه عائشة ، فما لها إلا أخت
 واحدة ، هي أسماء ، وقد ذهبت مع زوجها إلى
 اليرموك لقتال الروم ، فما بال أبيها يقول :
 أختاك ؟! فقالت في عجب : أختاي ؟

فقال أبو بكر في هدوء :

- ذو بطن ابنة خارجة ، فإني أظنها جارية .
كانت حبيبة بنت خارجة زوجته حاملا ، فلم يشأ
أن يهمل ولده الذي لا يزال في عالم الغيب ، بل
راح يفكر فيه ، ويعمل على إحقاق حقه قبل أن
يراه .

واشتد المرض عليه ، فنظر إلى زوجته أسماء بنت
عميس وقال : غسّليني .

فقالت أسماء في ضيق لما كانت تحب أن تغسل
زوجها بعد موته :

- لا أطيق ذلك .

فقال لها أبو بكر :

- يُعينك عبد الرحمن بن أبي بكر ، يصب الماء .

والتفت إلى عائشة وقال :

- في كم كفّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقالت عائشة : في ثلاثة أثواب .

فقال أبو بكر :

— اغسلوا ثوبَيَّ هَذَيْنِ — وكانا ممزقين — وابتاعوا
لي ثوبًا آخر .

فقالت له عائشة :

— يا أبت إنا موسرون .

فقال أبو بكر في هدوء :

— أَيْ بَنِيَّةُ ، الْحَيُّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ ، إِنَّمَا هُمَا
لِلْمُهَلَّةِ (لِلْقِيَح) وَالصَّدِيدِ .

وبدأت الشمسُ تغربُ ، واشتدَّ المرضُ بأبي بكر ،
وراح يُعالج سَكَراتِ الموتِ ، وفتح عينيه ، وقال
بصوتٍ خافت :

— يا عائشة ، ادفنوني بجوارِ رسولِ الله .

ثم أسبل جفنيه ، وأخذت روحه تُحشرُ في
صدره ، فقالت عائشة :

لعمرك ما يُغنى الثراءُ عن الفتى

إذا حشرجت يومًا وضاقَ بها الصدرُ

فبان الغضب في وجه أبي بكر ، ساءه أن تتمثل
أم المؤمنين بذلك الشعر ، ولا تتمثل بالقرآن ،
فقال :

- ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : « وجاءت
سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .

واشدَّ عليه الموت فقال هامسا :

وكلُّ ذى إبل موروثٌ وكلُّ ذى سلب مسلوبٌ

وكلُّ ذى غيبة يتوبُ وغائب الموت لا يتوبُ

وراح يجردُ بأنفاسه الأخيرة ، وكان آخرُ ما نطقَ

به :

- « ربُّ توفنى مُسلماً ، وألقننى بالصالحين » .

وفاضت روحُ أبي بكر ، خليفة الرسول ، فحزن

الناسُ لوفايته حزناً شديداً ، وراحوا يُجهِّزونه ليلاً ،

ثم خُفِرَ له لحدٌ بجوارِ لحدِ النَّبِيِّ في بيتِ عائشة ،

وحملوه ، ودخل قبره عُمرُ وعثمانُ وطلحةُ وعبدُ

الرَّحْمَنِ ابنُ أبي بكر .

دُفِنَ أَبُو بَكْرٍ ، وَسَمِعَ عُمَرُ نَوَاحِيًا ، فَقَدْ أَقَامَتْ
عَلَيْهِ عَائِشَةُ النَّوْحَ ، فَانْقَبَضَ عَمْرٌ ، وَسَارَ إِلَى بَابِ
عَائِشَةَ ، وَنَهَى النِّسَاءَ النَّاحِيَاتِ عَنِ الْبُكَاءِ ، فَأَبَيْنَ
أَنْ يَنْتَهِيْنَ ، فَتَحَرَّكَ غَضَبُ عَمْرٍ ، فَالْتَفَتَ إِلَى رَجُلٍ
مَعَهُ ، وَقَالَ لَهُ :

- ادْخُلْ فَأَخْرِجْ إِلَى ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ ، أُخْتَ أَبِي
بَكْرٍ .

وَبَلَغَ ذَلِكَ سَمْعَ عَائِشَةَ ، فَقَالَتْ لِلرَّجُلِ مِنْ وَرَاءِ
الْبَابِ :

- إِنِّي أَحَرَّجُ عَلَيْكَ بَيْتِي .

فَأَحْجَمَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ :

- ادْخُلْ ، فَقَدْ أَذِنْتُ لَكَ .

فَدَخَلَ هِشَامٌ ، فَأَخْرِجَ أُمَّ فُرُوءَ أُخْتَ أَبِي بَكْرٍ إِلَى
عَمْرٍ ، فَعَلَاَهَا بِالْذَّرَّةِ ، فَضْرَبَهَا ضَرْبَاتٍ ، فَتَفَرَّقَ
النَّاحِيَاتُ حِينَ سَمِعْنَ ذَلِكَ .

وخرجت عائشة ووقفت على قبر أبيها فبكت ،
ثم قالت :

- نضر الله بأبت وجهك ، وشكر لك صالح
سعيك ، فقد كنت للدنيا مُدلاًّ بإدبارك عنها ،
وللآخرة مُعزاً بإقبالك عليها ، ولكن كان أعظم
المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
رُزُؤك « مصيبتك » ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ،
إن كتاب الله عز وجل ليعذنا بالصبر عنك ، حسن
العوض منك . وأنا مُتَجَرِّة من الله مواعده فيك ،
بالصبر عنك ، ومُسْتَعِينَةٌ كثرة الاستغفار لك ،
فسلم الله عليك ، توديع غير قالية حياتك ،
ولا زارية على القضاء فيك .